طوبى للذي قام لإعلاء كلمة الدين، ونهَض يستقري طرق مرضاة الله النصير المعين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدِ رسله وصفوةِ أحبّته وخِيرته مِن خَلقه ومِن كل ما ذرَأ وبرَأ، وخاتَمِ أنبيائه، وفخرِ أوليائه، سيّدِنا.. وإمامنا.. ونبيِّنا محمد المصطفى، الذي هو شمس الله لتنوير قلوب أهل الأرضين، وآلِه وصحبه وكلِّ من آمن واعتصم بحبل الله واتقى، وجميع عباد الله الصالحين.

أما بعد.. فاعلموا أيها الإخوان، بارك الله فيكم ولكم وعليكم، أن فساد زماننا هذا قد بلغ إلى النهاية، وسوّد الشركُ والفسق والارتداد وجوهَ كثير من الناس، وانتابت الفتن المبيدة والبدعات المُسْحِتة، ولم تَخْلُ تَتابَعُ إلى أن أدركَ عَطَبُ الضلالة الذين كانوا سفهاءَ باديَ الرأي، وكانوا من تعاليم الله غافلين. وأنتم ترون العواصف التي هبت في هذه الأيام، والشرور التي هاجت وماجت من كل طرف وصُبّت كوابلٍ على الإسلام، حتى حل كلَّ قلب حُبُّ الدنيا وشهواتها، إلا الذي عصمه رحم الله، فانثنى بفضل منه ورحمة وكان من المحفوظين. وترون كيف ذهبت ريح عامة المسلمين وتفرّقوا، وانتشروا انتشار الجراد، واستنّت نفوسهم الأمّارة استنانَ

الجِياد، وتركوا سِيَرَ المتقين المتواضعين. هذه أحوال العامة، وأما حال علماءِ هذه الديار فهو شرٌّ من ذلك، ما بقِي لأكثرهم شغل من غير أن يُكذّبوا صدوقًا، أو يُكفّروا مؤمنًا، وليس معهم من العلم إلا كنُغْبةِ طيرٍ أصغرِ الطيور أو أقلّ منها، ولكن الكبر أكبرُ مِن كِبرِ الشياطين. يُعلُون أنفسهم بغير حق، ومن كان تبوّأَ ذروةً في الفضل والعلم فهو ليس في أعينهم إلا جاهل غبي، ومَن مُلئ قلبه إيمانا ومعرفة، فهو ليس عندهم إلا كافر دجّال. فانظروا كيف عُمِّيتْ عليهم الحقائق، وكذلك يجعل الله مآل الزائغين المعتدين.

وقد رأيتم أننا كيف أوذينا من لُسْنِهم. إنهم كذّبونا، شتمونا، لعنونا، وما كان لهم علينا ذنب وما كنا مجرمين. ثم ما اقتصروا عليه بل جاءوا يُهرعون إلينا مشتعلين، وسمَّونا كافرين. وما كان لهم أن يتكلموا في مسلمين إلا خائفين. ولكنهم لا يبالون نَهْيَ ذي الجلال بل لهم أعمال دون ذلك. يقولون للمسلم لستَ مؤمنا، ويعلمون أنهم تركوا القرآن بقولهم هذا واتخذوه مهجورا، فبعدوا عن الحق فقستْ قلوبهم. يفعلون ما يشاءون، ولا يتقون افتراءً ولا زورا، وكذلك افتروا علينا وحثُّوا ناسًا كثيرا من ذوي سفه على إيذائنا، وكفّرونا من غير علم ولا برهان مبين. وأَمَّهم في هذه الفتاوى شيخٌ عاري الجلدة من الحُلل الإنسانية والديانة الإيمانية، وتبعوه أمثاله جهلا وحمقا، وما كنا كمجهول لا يُعرَف، بل كانوا على إسلامنا مطّلعين. وما صرنا بتكفيرهم كافرين عند الله، ولكن سُبِرَ إيمانهم

وتقواهم ومبلغ فهمهم وعلمهم، وتبيّنَ ما كانوا يسترون، وبَان أنهم كانوا حاسدين.

يا حسرة عليهم! ما عطف إلينا أحد منهم ليسأل ما أشكل عليه حلمًا ورفقًا، وما سمعْنا صَكّةَ مستفتحٍ من المسترشدين. وما جاءنا أحد منهم بصدق القلب وصحة النيّة، بل بادروا إلى التكفير وكفّروا قبل أن يثبُت كفرنا. ثم ما اقتصروا عليه بل قالوا إن هؤلاء مرتدون خارجون من الدين، وفي قتلهم أجر عظيم، ونهبُ أموالهم حلالٌ طيب ولو بالسرقة، وأخذُ نسائهم وسبيُ ذراريهم عملٌ صالح حسن، ومَن انسلّ بسُحرة وسقط على أحد من مسافريهم كاللصوص فهو مِن نُخب الصالحين. هذه أقوالهم وفتاواهم، وما امتنعوا إلى هذا الوقت من هذه الفتن الصمّاء، وما فاءوا إلى الارعواء، وما كانوا متندّمين.

ولولا خوف سيف الدولة البرطانية لمزّقونا كلّ ممزّق، ولكن هذه الدولة القاهرة السائسة المباركة لنا - جزاها الله منّا خير الجزاء - تؤوي الضعفاءَ تحت جناح التحنن والترحم، فما كان لقويٍّ أن يظلم الضعيف، فنعيش تحت ظلها بالأمن والعافية شاكرين. وإن هذا فضل الله علينا وإحسانه أنه ما فوّض أمرنا إلى مِلكٍ ظالمٍ يدوسنا تحت الأقدام ولا يرحم، بل أعطانا مِلكةً راحمةً التي تربينا بوابل الإحسان والإكرام، وتنهضنا من حضيض الضعف والهوان، فجزاها الله خير ما جازى مِلكًا عادلاً عن رعيته، وأجزلَ لها الأجر وباركَ

فيها ولها، وتفضّلَ عليها بنعماء التوحيد والإسلام، ورحمها كما هي رحمنا☆، وهو ربنا أرحم الراحمين.

وأنتم تعلمون أيها الإخوان أن فتاوى التكفير ما كانت مبنيّة على تحقيق وما كان فيها رائحة صدق، بل نسجوا كلها بمنسج الكيد والظلم والزور افتراءً وحسدًا من عند أنفسهم، وكانوا يعرفوننا ويعرفون إيماننا، ويرون بأعينهم أنّا نحن مسلمون، نؤمن بالله الفرد الصمد الأحد، قائلين لا إله إلا هو، ونؤمن بكتاب الله القرآن، ورسولِه سيدنا محمد خاتم النبيين، ونؤمن بالملائكة ويوم البعث، والجنة والنار، ونصلي ونصوم، ونستقبل القبلة، ونحرّم ما حرّم الله ورسوله، ونُحِلُّ ما أحَلَّ الله ورسوله، ولا نزيد في الشريعة ولا ننقص منها مثقال ذرة، ونقبل كل ما جاء به رسول الله ﷺ وإنْ فهِمْنا أو لم نفهَم سِرَّه و لم نُدرك حقيقته، وإنّا بفضل الله من المؤمنين الموحّدين المسلمين.

وما خالفْنا المكفّرين إلا في وفاة عيسى بن مريم عليه السلام، فاغتاظوا غيظا شديدا، ومُلئوا منه كأنهم لا يؤمنون بآية: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾✪، ولا يؤمنون بوعد الوفاة الذي قد صُرّح فيها، وكأنهم لا يعرفون آية: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ التي فيها إشارة إلى إنجاز هذا الوعد

☆ سهو، والصحيح: "رحمتنا". (الناشر)

✪ آل عمران:٥٦

ووقوع الموت. والآيات بيّنة منكشفة، فلعلّهم في شك من كتاب مبين، فنبذوا كتاب الله وراءَ ظهورهم بعدما كانوا مؤمنين.

وتعجّبتُ.. ولا تعجُّبَ مِن ختم الله وإضلاله.. أن أكثر علماء هذه الديار فسدوا حتى عُطّلت حواسّهم، وسُلبت عقولهم، وغُمرت مداركهم، وكُدّرت آراؤهم، وغُشيت أعينهم. فيا عجبًا لفعل الله وقهره! كيف أخَذ كلَّ ما كان عندهم من البصيرة والمعرفة والدراية، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون. لا يأخذهم رقّةٌ على مصائب الإسلام، يكفّروننا ويكفّرون كلَّ من خالفهم من المسلمين في أدنى أمر ولو في بعض مسائل الاستنجاء، ويَدُعُّون المسلمين بأيديهم ويريدون أن يُقلّلوا الإسلام. ويرون بأعينهم أن النصارى قد غلبوا وكثر مذهبهم وامتد إلى أقطار الأرض، وهم ينسلون من كل حدب، واتخذوا العبدَ العاجز إلهًا، ونحتوا ابنًا وأبًا، ورسَوا على خزعبلاتهم أمثالَ الجبال والرُّبى.

وعلماؤنا هؤلاء عقدوا لجهلاتهم الحُبى، وصارت كلماتهم لزهرِ فِرْيتِهم كالصبا، وجمعوا رواياتٍ واهية كحاطب ليل أو طالب سيل، ونصروا النصارى بكلماتهم، وقالوا إن المسيح منفرد ببعض صفاته، وما وُجد فيه من كمال وجلال وعظمة فهو لا يوجد في غيره. إنه كان على أعلى مراتب العصمة، ما مسَّه الشيطان عند تولُّده، ومسَّ غيرَه من الأنبياء كلّهم، ولا شريك له في هذه الصفة حتى خاتم النبيين.

وقالوا إنه كان خالق الطيور كخلق الله تعالى، وجعله الله شريكه بإذنه، والطيور التي توجد في هذا العالم تنحصر في القسمين: خَلْق الله وخَلْق المسيح. فانظر كيف جعلوا ابن مريم من الخالقين. ويُشيعون في الناس هذه العقائد ولا يدرون ما فيها من البلايا والمنايا، ويؤيدون المتنصرين. وهلك بها إلى الآن ألوف من الناس ودخلوا في الملّة النصرانية بعدما كانوا مسلمين.

وما كان في القرآن ذكرُ خَلْقه على الوجه الحقيقي، وما قال الله تعالى عند ذكر هذه القصة: فيصير حيًّا بإذن الله، بل قال: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾، فانظروا لفظ ﴿فَيَكُونُ﴾ ولفظ ﴿طَيْرًا﴾، لِمَ اختارهما العليم الحكيم وترك لفظ "يصير" و "حيًّا"؟ فثبت من ههنا أن الله ما أراد ههنا خلقًا حقيقيا كخلقه ﷻ. ويؤيده ما جاء في كتب التفسير من بعض الصحابة أن طير عيسى ما كان يطير إلا أمام أعين الناس، فإذا غاب سقط على الأرض ورجع إلى أصله كعصا موسى، وكذلك كان إحياء عيسى، فأين الحياة الحقيقي؟ فلأجل ذلك اختار الله تعالى في هذا المقام ألفاظًا تناسب الاستعارات ليشير إلى الإعجاز الذي بلغ إلى حدّ المجاز، وذكر مجازًا ليُبيّن إعجازًا، فحمله الجاهلون المستعجلون على الحقيقة، وسلكوه مسلكَ خَلْق الله مِن غير تفاوت، مع أنه كان مِن نفخ المسيح وتأثير روحه مِن غير مقارنته دعاء*، فهلكوا وأهلكوا كثيرا من الجاهلين.

* **الفائدة:** كان الإحياء بالنفخ كالإماتة بالنظر.

والقرآن لا يجعل شريكا في خلق الله أحدًا ولو في ذباب أو بعوضة، بل يقول إنه واحد ذاتًا وصفاتٍ، فاقرأوا القرآن كالمتدبرين. فالأمر الذي ثبت عقلاً ونقلاً واستدلالا لا يُنكره أحد إلا الذي ما بقي في رأسه مِرّةٌ إنسانية ولحِق بالأخسرين السافلين. ولا يقول أحد كمثل هذه الكلمات إلا الذي نسي طريق التوحيد ومال إلى الجاهلية الأولى، وما بلغ نظره إلى نتائجها الضرورية ومفاسدها المخفية، أو الذي رسا على جهله عمدًا وغرق في لُجّة التقليد غرقًا، حتى فقد أثر حرية الإنسانية، وسقط في شبكة لا تخلُّصَ منها، وتابَعَ أَثَرَ إبليس اللعين. والذي آمنَ بالقرآن وألقى نفسه تحت هداياته فلن يرضى بمثل هذه العقائد، بل لا يسوغ له قولٌ يُخالف القرآن بالبداهة ويُعارض بيّناته ومُحكَماته صريحا. وأيُّ ذنب أكبر من ذلك أن أحدًا يؤمن بالقرآن ثم يرجع ويُنكر بعض هداياته، ويتّبع المتشابهات ويترك المحكمات، ويحرّف القرآن ويغيّر معانيه من مركزها المستقيم، ويؤيّد بأقواله قوما مشركين؟ ولكن الذي تمسّكَ بكتاب الله وآمن بما فيه صدقا وحقا، فأيّ حرج عليه وأيّ ضير إنْ ترَك روايات أخرى التي تُخالف بيّناتِ القرآن وليست ثابتة من رسول الله ﷺ بثبوت قطعي يقيني الذي يُساوي ثبوت القرآن وتواتُرَه، أو ترَك مثلا معاني تُخالف نصوصه، واختار الموافق ولو بالتأويل؟ بل هذا مِن سِيَر الصالحين المتقين ومِن سِيَر الصدّيقةِ - رضي الله عنها - أُمِّ المؤمنين.

فالواجب على المؤمن المسلم المتورع الذي يتقي الله حق التقاة، أن يعتصم بحبل الله القرآن ولا يبالي غيرَه الذي يخالفه، وإذا رأى وانكشف عليه أن بعض العلماء من السلف أو الخلف غلطوا في فهم أمر فليس من ديانته أن يتبع أغلاطهم، ويقبلها بغضّ البصر، ولا يفارقها بتفهيمِ مُفهِّمٍ، ويرسو عليها أبدًا، ولا يلتفت إلى الحق الذي حصحص والرشد الذي تبيّنَ. فإن أمرًا إذا ثبت فلا بد من قبوله ولا مفرّ منه. مثلا جاء في حديث رسول الله ﷺ: "لا عَدْوَى".. أي لا تُجاوِزُ علّةٌ من مريض إلى غيره، ولا يُعدِي شيء شيئا، ولكن التجارب الطبية قد أثبتتْ خلاف ذلك، ونحن نرى بأعيننا أن بعض الأمراض، مثلا داء الجمرة التي يُقال لها في الفارسية "آتشك" يُعدي من امرأة مُبتلاة بهذا المرض رجلا ينكحها وبالعكس. وكذلك نرى في عمل الإبرة الذي مبني على خميرِ مادةٍ مجدَّرٍ فإنه يُبدي آثار الجُدري في المعمول فيه. فهذا هو العدوى، فكيف ننكره؟ فإن إنكاره إنكارُ علومٍ حسّية بديهية التي ثبتت عند مُجرّبي صناعةِ الطب، وما بَقِيَ فيها شك للأطفال اللاعبين في السكك فضلاً عن رجال عاقلين. فلا بد لنا من أن نؤوّل هذا الحديث ونصرفه إلى معان لا تخالف الحقيقة الثابتة، وإنْ لا نفعل كذلك فكأنا دعونا كل مُخالف ليضحك علينا وعلى مذهبنا، فإذنْ أيَّدْنا الساخرين.

فنقول في تأويل هذا الحديث إن رسول الله ﷺ ما أراد من قوله: "لا عَدْوَى" نَفْيَ السراية من كل الوجه، وكيف وقد حذّر من

المجذومين في حديث آخر. فما كان مراده من هذا القول من غير أن التأثيرات كلها بيد الله تعالى، ولا مؤثِّرَ في هذا العالم الدائر بالكون والفساد إلا بحُكمه وإرادته ومشيئته. وإذا أوّلنا كذلك فتخلَّصْنا من شبهات المعترضين.

والذي نفسي بيده.. إن رسول الله ﷺ ما أراد قطُّ في هذا المقام وأمثالِه مِن نزول عيسى وغيره إلا معاني تأويلية◈، فلا تعجَلْ ولا تُعِنْ فتنَ المفسدين. هذا هو القول الحق، فاقبَلوا كلمة الحق ولو خرج من فم طفل، فإن السعادة كلها في قبول الحق، فطوبى للذين يقبلون الحق خاضعين. والذين عادَونا فلا يقبلون الحق مع أنه ليس فيه دقّة وإغماض، بل هم يعلمون في قلوبهم أنه الحق المبين. وإذا قيل لهم آمِنوا بالحق الذي تبيّنَ، وبالمعاني التي حصحصت صحتها، قالوا أنؤمن بأمور تخالف أقوال أسلافنا؟ وإنْ كان أسلافهم من الخاطئين المخطئين؟ ونرى أنهم قد خُنقوا، وأن ثلوج البخل قد تساقطت على أرض قلوبهم بشدّتها ومُداكاتها، فخنقتْ شَطْأَها، وردِفها حَصَى التعصب، فسُحقت الاستعدادات تحتها كالحديد تحت مطرقة القَين، أو القطنِ تحت مطرقة الطارقين. والعجب منهم ومن عقلهم أنهم يرون بأعينهم أن كلماتهم الباطلة المضلّة قد أضرّت الإسلام إضرارًا عظيما، والناس باستماعها يخرجون من دين الله أفواجا ويلتحقون

◈ **الفائدة**: لو كان المراد من نزول عيسى نزولَه بذاته لقال رسول الله ﷺ سيرجع، وما قال إنه سينـــزل، فإن لفظ الرجوع مناسب للذي يَقدُم بعد الذهاب. منه

بالنصارى بما سمعوا من صفات المسيح وعصمته الخاصة وخلوده إلى هذا الوقت، وقدرته الكاملة في الخَلق والإحياء على قدرٍ ما وُجِدَ مثله في أحد من النبيين. ويشاهدون – هذه العلماء – هذه المفاسد كلها ثم لا يتنبهون، ولا يرتجف فؤادهم، ولا تذوب أكبادهم، ولا يأخذهم رحم ورقّة على أمّة النبي. ونبكي عليهم ونصرخ صرخة متموّجة، فلا يسمع أحد بكاءنا ولا صراخنا، بل يُكفّروننا مغتاظين.

وإنما مثلنا في هذه الأيام.. أيامِ غربة الإسلام.. كمثل خابط في واد في الليلة المظلمة، أو صارخ في اللظى المضرمة، فلا نجد مُغيثًا من قومنا إلا الواحد الذي هو رب العالمين. وإنا يئسنا منهم غاية اليأس كأنّا وضعناهم في قبورهم. قلنا مرارًا فما سمعوا، وأيقظنا إنذارًا فما استيقظوا، وخضعنا أطوارًا فما خضعوا، فقلنا اخسأوا خسئًا.. إن الله غني عنكم ولا يعبأ بكم، وسيأتي بقوم ينصرون دينه ويحبّون الصادقين.

فحاصل الكلام.. إني إذا رأيت هذه الأمراض والسموم ساريةً في عروق أكثر علماء الهند، ورأيتهم في غُنْية من كتاب الله ورسوله، بل رأيتهم ضاربين بعود ومزمار آخر، وكلٌّ أحد منهم زمّارٌ بما عنده من الخيالات الباطلة، وارتضى بمعازفه النفسانية متمسّكا بها، ولا يتوبون ولا يتندّمون، بل أراهم يصرّون ويفخرون على جهلاتهم ويصفّقون بالأيادي فرحين، ويكفّرون المؤمنين مجترئين كأنهم في مأمن من مؤاخذة الله ومحاسباته، وكأن الله لا يسأل عنهم ولا يقول

لِم قفوتم ما لم يكن لكم به علم، ولا يُنبّئهم بما في صدورهم في يوم! كلا، بل إنهم من المسؤولين. ورأيت أن الفتن ليست محدودة إلى أنفسهم، بل العامة قد اجتمعوا على صفيرهم، واغترّوا بتقاريرهم اليابسة الملمَّعة، فاشتعل غيظ العامة علينا، وتبوّغَ دمهم بتهييج المفترين، وحسبوهم عالِمين متديّنين صادقين.

فلمّا زُلزلت أرض الهند كلها، وأحسستُ من العلماءِ البخل والحسد، وضعتُ في نفسي أن أُعرض عنهم فارًّا إلى مكة، وأن أتوجّه إلى صُلحاءِ العرب ونخباء أُمِّ القُرى الذين خُلقوا من طينة الحرية، وتفوّقوا دَرَّ الأهلية، فألقى الله في قلبي عند مسّ هذه الحاجة أن أؤلّف كتبا في لسان عربي مبين. فألّفتُ بفضل الله ورحمته وتوفيقه كتابا اسمه التبليغ(١)، ثم كتابا آخر اسمه التحفة(٢)، ثم كتابا آخر اسمه كرامات الصادقين(٣)، ثم ألّفتُ بعدها حمامة البشرى(٤)، فيه بشرى للذين يطلبون الحق وتفصيل كلٌّ ما قلنا من قبل، والتي تنهالُ من تلك الرسائل متفرّقا يُعطي هذا الكتابُ مجتمعا للجائعين؛ ونِسبتُه إليها كنسبة شجرة إلى بذرها، وجاء بحمد الله حسَنًا مبسوطا مُباركا. وأما ثمن هذه الكتب فهي هدية لبلاد الحجاز وبلاد الشام والعراق والمصريين والأفريقيين كلهم، ولكل من كان عالما منصفا مع صفر اليد. وأما غيرهم فعليهم إن أرادوا اشتراءها أن يُرسلوا روبية في ثمن "الحمامة"، وكذلك في ثمن "الكرامات"،

ونصفها في ثمن "التبليغ"، وآنَتين "للتحفة" إن كانوا مشترين. وإنّا نقصنا آنةً من ثمن "التحفة" رعايةً للشائقين.

وما ألّفتُ هذه الكتب إلا لأكباد أرض العرب، وكان أعظم مراداتي أن تشيع كتبي في تلك الأماكن المقدسة والبلاد المباركة، فرأيت أن شيوع الكتب في تلك البلاد فرعٌ لوجود رجل صالح يُشيعها، وأيقنت أن شهرة كتبي وانتشارها في صلحاءِ العرب أمر مستحيل من غير أن يجعل الله من لدنه ناصرا منهم ومن إخوانهم. فكنت أرفع أكُفَّ الضراعة والابتهال لتحصيل هذه المُنْية، وتحقيق هذه البُغْية، حتى أُجيبتْ دعوتي، وأُعطيتْ لي بُغْيتي، وقاد إليَّ فضل الله رجلا ذا علم وفهم ومناسبة ومن علماء العرب ومن الصالحين. ووجدته طيّب الأعراق كريم الأخلاق، مطهّرة✪ الفطرة لَوْذَعِيًّا ألْمَعِيًّا ومن المتقين. فابتهجتُ بلقائه الذي كان مرادي ومدعائي، وحسبتُه باكورةَ دعائي، وتفاءلت به بخير يأتي وفضل يحمي، وازدهاني الفرح وصرت يومئذ من المستبشرين، فهنّيتُ نفسي هنالك وشكرتُ الله وقلتُ الحمد لك يا رب العالمين.

وتفصيل ذلك أن شابًّا صالحا وَسِمًا جاءني من بلاد الشام، أعني من طرابلس، وقاده الحكيم العليم إليَّ ولبث عندي إلى سبعة أشهر، أعني إلى هذا الوقت، فتوسّمتُ فيه الخير والرشد، ووجدت في مِيْسَمه أنوار الصلاح، ورأيت فيه سِمة الصالحين. ثم أمعنتُ في حاله

✪ *سهو، والصحيح: "مطهر". (الناشر)*

وقاله وتفحصت مِن ظاهره وباطن أحواله بنور أُعطيَ لي وإلهام قُذف في قلبي، فآنستُ حسن تقاته ورزانة حصاته، ووجدتُه رجلا صالحا تقيّا راكلا على جذبات النفس وطارِدَها ومن المرتاضين. ثم أعطاه الله حظًّا من معرفتي فدخل في المبايعين. وقد انفتح عليه باب عجيب من معارفنا وألّف كتابا وسمّاه: "إيقاظ الناس"، وهو دليل واضح على سعة عمله، وحجة منيرة على إصابة رأيه، ويكفي لكل مُمار في مضمار. ولما أفضى في تأليف ذلك الكتاب جمع عنده كثيرا من كتب الحديث والتفسير، وفكّر فكرا عميقا في كل أمر، فهو دَرُّ أفكاره، ونور أنظاره، وليس علامةُ العارف من دون المعارف. وإني إذا قرأتُ كتابه وتصفحت أبوابه ورفعت جلبابه، فاستملحتُ بيانه، ومدحتُ شأنه، وما وجدت فيه شيئا شانَه، وأدعو أن يشيع الله كتابه مع كتبي، ويضع فيه قبوليّةً ويُدخل فيه روحا منه، ويجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وجزاه في الدارين وبارك في مقاصده ويدخله في المقبولين.

ولما فرغ من تأليف كتابه حمله إخلاصه على أن يكون مُبلِّغَ معارفنا إلى علماء وطنه، ويخبر فيهم عن أخبارنا، ويكون مناديا ويطلق نداءً في كل ناحية، ويُشيع الكتب ليتضح الأمر على أهل تلك البلاد، وهذا هو المراد الذي كنا ندعو له في الليل والنهار. وأرى أنه رجل صادق القول والوعد، يتّقي الفضول في الكلام، ولا يرتع اللسان في كل مرتع بإطلاق الزمام. ولقد أدخل الله حُبَّنا في

قلبه، فيحبّنا ونحبّه، وكلّ ما وعد هذا الرجل وتكلّمَ فأتيقّنُ أنه هو أهله، وسينجز كما وعد، وأرجو أن يجعله الله سببا لريع بذرنا، وسوغ حلبنا، وهو أحسن المسبّبين.

ورأيتُ أنه رجل مرتاض صابر لا يشكو ولا يفزع، ورأيت مرارا أنه يقنع على أدنى المأكولات والملبوسات، ولو لم يكن لحاف فلا يطلبه، بل يدفع البرد من التضحي واصطلاء الجمر، ولا يسأل تعفّفًا. ووجدتُ فيه آثار الخشوع والحلم والإنابة ورقّة القلب، والله أعلم وهو حسيبه. وما قلت إلا ما رأيت، فلا تعجبوا من رحمة الله أن تكفكِفَ ما دَهَمَنا مِن حرج بسعي هذا الرجل، والله يفعل ما يشاء، لا مانع لما أراد، ولا رادّ لما جاد، وهو حافظُ دينه وناصر كل من ينصر الدين.

واعلموا أيها الإخوان أن أمر إشاعة الكتب في ديار العرب وتبليغ معارف كتبنا إليهم ليس بشيء هيّن، بل أمر ذو بال لا يُتمّه إلا من هو أهله، فإن هذه المسائل الغامضة التي كُفِّرْنا وكُذِّبْنا لها لا شك أنها تصعُب على علماءِ العرب كما صعبتْ على علماءِ هذه الديار، لا سيما على أهل البوادي الذين لا يعلمون دقائق الحقيقة، ولا يتدبّرون حق التدبّر، أنظارهم سطحية وقلوبهم مستعجلة، إلا قليل منهم الذين أنار الله فطرتهم وهم من النادرين. فلأجل تلك المشكلات التي سمعتم.. اقتضت المصلحة الدينية أن نتخيّر لهذا الأمر

عالِمًا مذكورا الذي اسمه محمد سعيدي النشار الحميدي الشامي*.
ولا شك أن وجوده لهذا المهمّ من المغتنمات، ومجيئه عندنا مِن فضل قاضي الحاجات، وهو خيرٌ قلبًا ونِعْمَ الرجل، مع أن الضرورة قد اشتدت، فلعل الله يصلح أمرنا على يديه، وهو بهذا التقريب يصل وطنه وينجو من تكاليف السفر العنيف، ويتخلّص من مُفارقة المألف والأليف، وتُؤجَرون عليه من الله الرحيم اللطيف. وما قلتُ إلا لله وما أنا إلا ناصح أمين.

والذين يظنون أن أهل العرب لا يقبلون ولا يسمعون، فليس عندنا جوابُ هذا الحمق مِن غير أن نحولق على قولهم ونسترجع على فهمهم. ألا يعلمون أن العربيِّين سابقون في قبول الحق من الزمان القـــديم؟ بل هم كالأصل في ذلك وغيرهم أغصانهم. ثم نقول إن هذا فعلُ الله رحمةً منه، والعرب أحق وأولى وأقرب برحمته، وإني أجد ريح فضل الله، فلا تتكلموا بكلمات اليأس ولا تكونوا من القانطين. ولا تظنوا ظن السوء، وإن بعض الظن إثم، فاتقوا الظنون الفاسدة التي تتزعّجُ منها أرضُ إيمان الظانين وتنـــزعجُ النيّة الصالحة، وتكثُر وساوس الشياطين. وقوموا متوكلا على الله وقَدِّموا من خير ما استطعتم، وأَعِدُّوا لأخيكم مِن زادٍ يكفيه لسفره البحري والبري، وكان الله معكم ووفّقكم وهو خير الموفِّقين.

* الحاشية: مسكنه طرابلس "شام" مُلك "سيريَه"، ويُقال لها باللغة الإنجليزية تربولي، وهي مدينة عظيمة على ساحل بحر الروم بينها وبين بيروت ثلاثون أكواسًا. منه

فنرجو مِن إخلاص أهل الثروة والمقدرة أن يتوجهوا إلى اهتمام هذا الأمر بكل القلب وكل الهمّة، ولا حاجة إلى أن نُكثِر القول ونبالغ في الكلام ونستنهض همم الأحبّاء والمخلصين ببيانات مملوءة من التكلفات، فإنّا نعلم أن الإشارة كافية لأحبّائنا المتصدّقين. فليُعط كل أحد منهم بقدر قدرته التي أعطاه الله ولا يستحي ولا يحتشم من أن ينفح بالقليل، وليعلم أن الغرض أن يُعطي ولو كانت فلسة أو ربعه أو أقلّ من الفتيل. ومن كان ذا عيشة خضراء فليعط بقدر حيثيّته إن شاء، وما هذا إلا عملُ طلاّبِ وجه الله، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ويبارك الله في ماله وأهله وعياله، وما تنفقون في سبيل الله فهو عائد إليكم في الدنيا والآخرة ولا ترون خسرا. فإن أعطيتم بذرًا فلكم زراعةٌ، وإن أعطيتم قطرةً فلكم بحرٌ فضلا من عند الله، والله لا يضيع أجر المحسنين. أم حسبتم أن تُغفَروا ويرضى عنكم ربكم ولما يجَدْكم ساعين لمرضاته والطائعين كالمخلصين. أيها الرجال! اتقوا الله وكونوا من الذين يُؤْثِرونه على أنفسهم، واعلموا أن الله مع المتقين. إنما أموالكم وأولادكم فتنة، وينظر الله أتحبونه أو تحبون أشياء أخرى، وستُبعَدون عن هذه اللذات ولا تبقى هذه المجالس ونظّارها، ثم تُرجَعون إلى الله وتُسألون عما عملتم وعما جاهدتم في سبله. فقوموا أيها الناس قوموا، الوقت يذهب. قوموا سريعا ولا تقعدوا مع المترَفين. ولسنا بالموجب حقًّا لمن لا يوجب الحق على نفسه، ولا يُكلّف الله نفسا إلا وُسعها وما أنا من

المتكلفين. وما أتوجه إلا إلى الذي يصدُقني الوُدَّ، وأترك الذي منعه البخل فصدَّ، ولحِق بالذين بخلوا فرُدَّ، وعُدَّ من المخذولين.

وليعجل المرسِلون للإرسال فإن الوقت ضيّق، والضيف العزيز مستعدّ للسفر. وقد وجب علينا إعلام المتغفلين بأسرع أوقات، فلا ينبغي أن تقعدوا كسالى بعدما بينتُ لكم ضرورة هذا الأمر، فقدِّموا للمعاضدة ولا تأخّروا، وانفُضوا أيديكم تُؤجَروا، وكونوا في سبيل الله سابقين. ولْيُرسِلْ ههنا في قاديان مَن كان مُرسِلاً من درهم أو دينار، وليبيّنْ في مكتوبه أنه أرسل له، بل الأولى أن يرسل إليه باسمه بلا واسطتي ليجمع عنده كل ما يجيء، وليطمئن به قلبه. وإن أنفَسَ القُرُبات إعلاءُ كلمة الإسلام، وهذا وقته، فلا تضيّعوا وقتكم، وقوموا كالخادمين.

أيها المسلمون! فِرّوا إلى الله، واتقوا الفتن التي هاجت وماجت حولكم وفيكم، واعملوا عملاً يرضاه ليكون لكم زلفى لديه، ولتأخذكم رقّةٌ على دينكم فإنه ضعُف وبدأ الشيب بفَوْدَيه، والشيب غير طبعي حدَث من نوازل الحادثات والتكاليف المتتابعات، ولينظر كل أحدٍ منكم عملَه، وليُفتّش خطراتِه، وليَزِنْ بِضاعتَه التي أعدّها للآخرة، ولينقدْ دراهمه التي جمعها لذلك السفر، هل هي وازنة جيدة أو مغشوشة ناقصة، ولا يخدع نفسه، ولا يُغرِّرْ بنفسه من المغشوشات، وليتداركْ قبل ذهاب الوقت، ولا تقعد كالغافلين.

أيها الناس! زَكُّوا نفوسكم، وطهِّروا صدوركم، ولا تُفرِحْكم جيفةُ الدنيا وشحومها، ولا تجلبكم إليها كِلابها، ولا تموتوا إلا مسلمين مطهَّرين. ولا تتقوا لعن المخلوق فإنه سهل هيّن، واتقوا لعن اللاعن الذي يسوِّد الوجوه لعنُه ويُلقي في هُوّة السافلين. هذا ما أوصيناكم فتذكّروا ما أوصينا، واشهدوا أنّا بلّغْنا، والله خير الشاهدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.